

مفهوم العمارة والسكن عبر التاريخ

أن تاريخ العمارة في جوهره عبارة عن تاريخ تطور التناقض بين المطلب الاجتماعي والفكري أو الحضاري وبين المرحلة التقنية للحقبة الزمنية المعينة، فلقد وجدت العمارة لتلبي حاجة اجتماعية معينة، وانها لا تتناول مسألة التسقيف حيث تكيفت الحاجات اجتماعية عبر العصور واتضح بأن للعمارة وجهين : الأول، الوجه المادي الوظيفي لكون العمارة مادة حقيقية لها تراكيبها الإنشائية المحددة وتقنياتها الخاصة بها، ولها وظائفها المختلفة ومنها تنسيق العلاقة بين الإنسان والطبيعة بما في ذلك النواحي البيئية في حماية الانسان من المخاطر الطبيعية والمناخية ، والثاني فهو المعنوي الفكري لأن العمارة بصفاتها جزء من الحياة الاجتماعية تقوم بإشباع حاجات الانسان الحسية مستوعبة الفكر الذي يحمله ذلك الشعب في تلك الحقبة الزمنية المعينة، فيكون من الضروري عند النظر إلى فحوى العمارة تناول كلا الوجهين فإذا أغفل أحدهما يكون التنفيذ في العمارة أحادي الجانب أظهرت التنقيبات والتحريات العلمية أن الإنسان سكن أرض العراق منذ العصور الحجرية القديمة، وقد اتخذ في بادئ الأمر الكهوف والمغارات كمنا يأوي اليه من الاخطار الطبيعية وتقلبات المناخ.

ثم شيد دور السكن وفق تقنيات استمد أصولها من الطبيعة التي احاطت به وباستخدام المواد المحلية كالطين والخشب ثم طورها تدريجيا باستخدام الطابوق المفخور وغير المفخورة، لتتلائم مع متطلبات حياته والبيئة التي عاش فيها. وقد اهتم الإنسان إلى أصول البناء والتي يغلب عليها طابع الاقواس والقباب غير المنتظمة، فظهر بذلك المأوى أحادي الفضاء وهو مكون من غرفة دائرية واحدة فيها فتحة صغيرة ، إذ يلاحظ أن نسبة مساحة الجدران إلى مساحة الفضاء الكبيرة وهذه مرتبطة بفكرة الانسان عن الكهف ذات الجدران السمكية.

- مؤشرات الإنسانية في العمارة العربية الإسلامية

أكد الإسلام على الخصوصية ويقصد بها العزل البصري بين الرجال والنساء ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا)) (النور: ٢٧٤) للحرص على خصوصية المسكن وكذلك إقرار مبدأ الوسطية ، وكذلك مبدأ عدم الإسراف والبساطة والتواضع والمساواة والتكامل الاجتماعي ويبرز أيضا مبدأ التجريد وكرهية التشخيص فالطروحات الإسلامية أثرت على سلوك المجتمع الإسلامي وأفكاره مما صبغ الحضارة الإسلامية بصبغة مميزة وكانت العمارة واحدة من مظاهر الحضارة التي أثر عليها الفكر

الإسلامي وحدد صفاتها وحدد بالضرورة صفات الفضاء المعماري في العمارة الإسلامية ولهذا قال Schulz بأن العمارة الإسلامية حقيقة تكتشفها بزيارتنا لها إذ تشعرها قبل أن تلتقي بأي إنسان أو نرى أي علامة كتابية ، تشعرها في كل مبنى وفي كل زخرفة وعلى مستوى المدينة ككل، هذا الشعور الذي جعل شولز (Schulz) يطلق على العمارة الإسلامية ، عمارة الوحدة تتجلى علاقة العمارة بالدين الإسلامي من خلال عقيدة التوحيد كأساس عقائدي ، فالعمارة ممارسة حضارية تبدأ بالإيمان في البحث عن سر المطلق وعن قدراته الهائلة التي تتمثل في الكائنات والطبيعة وقد تجسدت هذه العلاقة في العمارة العربية الإسلامية في العديد من المؤشرات تعكس انسانية تلك العمارة ومنها :

١- عمارة تحترم المقياس الإنساني باعتبار الإنسان المخلوق الذي كرمه الله

تعالى " عن بقية المخلوقات واعتباره قيمة عليا، وقد شبه ابن قتيبة الدار بالقميص، فحيث يخاط القميص حسب مقياس صاحبه، كذلك يبنى البيت، وبهذا يعد ابن قتيبة أول من تحدث عن المقياس الإنساني في العمارة الإسلامية، فالغرض الأساس من العمارة، هو تحقيق السكينة والثقة لمن يشغل هذه العمارة، سواء كانت عامة أو خاصة، فالأصل هو الإنسان وحاجاته وطموحاته، ومنه تتسلسل مراحل العمارة دون أن تنفصل عنه في أي مرحلة من مراحلها ، ويتجلى المقياس الإنساني في العمارة الإسلامية في تحقيق التوازن المناخي أو ما يسمى التكيف عن طريق التكوين المعماري، وكان أهم ما لفت اهتمام المعمار هو العزل أي تخفيف أوصد المؤثرات المناخية الخارجية عن المسكن. واعتمد المقياس الإنساني عمارة مسجد المدينة.

٢- عمارة تحقق الخصوصية لمستعملي المسكن والآخرين بالانفتاح نحو الداخل

وتوجيه الرؤيا نحو السماء حيث يمثل الفناء الداخلي المعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية والمناخية، وبأسبقية الداخل على الخارج والمضمون على الشكل والجوهر على المظهر .

٣- البساطة في المظهر والاعناء في الجوهر، مما يعني بساطة الواجهات

الخارجية لأسباب كثيرة أبرزها رغبة المعمار المسلم بعدم التظاهر والتفاخر وتشكيل عمارة بسيطة متواضعة وظيفية اقتصادية بحد أدنى من الزخرف والتزيين.

٤- تميزت العمارة الإسلامية بالسجام الشكل المعماري مع المضمون الوظيفي

ولكن اختلاف العادات واللغات والحضارات في العالم الذي دان بالإسلام من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، أوجد تنوعاً في الإبداع مع التصاق

قوي بالوظيفة. ولقد كان الطراز الإغريقي والروماني واحداً في جميع المباني على اختلاف وظائفها.

٥- الوحدة والتنوع في العمارة الإسلامية تستمد من وحدة الآلهة، والتنوع مع الوحدة بمائل التعامل مع الأصوات لإنتاج التناغم . ولعل الوحدة من أبرز خصائص العمارة الإسلامية، وتتجلى في العمارة الدينية والمدنية، وفي العمارة الخاصة والعامة على اختلاف المناطق وتتالي العصور وتبقى هذه الوحدة العامل الأساس في تكوين هوية العمارة الإسلامية، أما تنوع أساليب العمارة فتعبر عن دور الإبداع في التصميم المعماري بالتنوع في الأساليب والطراز والأشكال . ولهذا كان أمام المصمم فرص كثيرة لتنوع الإبداع ضمن حرية واسعة يسدد اتجاهها الفكر الجمالي الإسلامي، وبهذا كان التنوع مصحوباً دائماً بوحدة الأسس الجمالية التي يقوم عليها الإبداع الإسلامي.

٦- إن العمارة الإسلامية هي عمارة مستقلة عن الخارج منفتحة على الداخل، وجميع العناصر المعمارية من فراغ وكتل وخطوط وزخارف يعيشها سكان العمارة، ولكن ثمة عناصر اتصال بالسماء تتمثل بالصحن كفاء مفتوح، وبالمئذنة والقبة الأولى تعبر عن التسامي لاخترق أسرار الفضاء، والثانية تعبر عن القبة السماوية. إن المشهد الخارجي للمسجد المتمثل في القبة والمئذنة وكتلة البناء، هو المشهد الذي يسهم في تكوين فراغ المدينة، ويعزز هويتها.